دور العرب في إزدهار الثقافة الأندلسية الإسلامية وأسبابه

The role of the Arabs in the prosperity of Islamic Andalusian culture and its causes

د.عبدالمجيد البغدادى*

محمّدنواز**

ABSTRACT:

This article shows the Islam and its followers (Arabs) had created a civilization that played very important role on the world stage for more than a thousand years. One of the most important specific qualities of the Islamic civilization is that it is a well-balanced civilization that brought together science and faith, struck a balance between spirit and matter and did not separate this world from the Hereafter. The Islamic civilization in Spain encompasses many fields that left a profound imprint in the Iberian Peninsula and Europe. The cultural climate of Spain in the era of Muslim rule (711-1492) brought about a prospering of different aspects of science and culture. Numerous schools and libraries were established and books were procured due to which the majority of the people were literate. Literature and art flourished. Buildings were constructed and Islamic art with its specific qualities was cultivated. Because of that movement, Cordoba became the civilization capital of both Spain and the West in general. Many schools were established in it, such as medical and technical schools in addition to the general education and other vocational schools. Hospitals, chemical plants and observatories were also built.

Keywords: Arabs, Islamic civilization, Science and faith, Spain, Cordoba.

إن الأرض كانت تدعى " بالأندلس" في الدولة العربية، هي عرفت بإسم " أيبريا" في أقدم العصور حين سكن فيها "الأيبريون" الذين كانوا من أقدم من أقام في هذه البلاد، وبعد ذلك سميت "بأسبانيا" أو"بأشبانية" وهذا الإسم قد أطلقه الرومان حين حكموها حول منتصف القرن الثاني قبل الميلاد بعد إقامة الإغريق والقرطاجنيين فيها كما يقول المقري في كتابه:" ثم صار ملك الأندلس بعدهم إلى عجم رومة وملكهم أشبان بن طيطش وبإسمه سميت الأندلس "إشبانية"[1] ثم جاء الوندال في أوائل القرن الخامس الميلادي بعد الرومان وسموها بقندليشيا،Vandalisia ، ثم نزل القوط بها وأجلوا الوندال منها وملكوها وظل ملكهم، حتى افتتح المسلمون

*Assistant Professor, Department of Arbic AIOU, Islamabad.
Email: baghdadidgk@yahoo.com
**Ph.D Scholar, Allama Iqbal Open University, Islamabad.

شبه الجزيرة في أوائل القرن الثامن الميلادي، وأطلقوا إسم "الأندلس" عليها، وبقى هذا الإسم إلى الآن بأدنى تغير في اللفظ والمعنى، أما اللفظ فقد أصبح "أندالسيا" Andalucia، وأما المعنى فقد صار جنوب شبه الجزيرة فقط بعد أن كان أطلق على شبه الجزيرة جميعا.[2] لكن وُجدت تعليلات أخرى لتسمية شبه الجزيرة بإسم الأندلس وهي كما كتب المقري في كتابه نفح الطيب:" أول من سكن بالأندلس على قديم الأيام فيما نقله الأخباريون من بعد عهد الطوفان على ما يذكره علماء عجمها قوم يعرفون بالأندلش معجمة الشين بهم سمي المكان، فعرب فيما بعد بالسين، غير معجمة بالسين، ومنها رواية:"سميت بالأندلس إبن طوبال بن يافث بن نوح لأنه نزلها."[3] والمنطقة التى تدعى الأندلس أو أندلوسيا اليوم هى منطقة واسعة تشمل جنوب أسبانيا.[4]

جغرافية الأندلس:

إنها كانت من أعظم البلاد الأوروبية ومن أجمل بقاع الأرض ذات طبيعة ساحرة جذابة إليها، وهي شبه الجزيرة التي تقع على الطرف الغربي من قارة أوروبا، طولها ألف ومائة ميل وعرضها نحو ستة مائة ميل تحيط بها المياه من ثلاثة جوانب: من الغرب بحر الظلمات ومن الشرق بحر الروم ومن الجنوب بحر الزقاق، أما من الشمال تتصل حدودها إلى جبال البرانس الفاصلة بينها وبين فرنسا.[5]

أما صورة الأندلس فإنها شكل مركن ذات ثلاثة أركان كالمثلث: ركنها الأول عند صنم قادس وثانيها في بلاد جليقية بمقابل الجزيرة القرطاجنة وثالثها بمدينة أربونة، ومدينة برزيل.[6] ويقول الأمير شكيب أرسلان:"أما الأندلس في ذاتها فشكل يحيط بها البحر من جميع جهاتها الثلاث."[7]

وهذا البلاد تقسم جغرافيا إلى قسمين: الأندلس العليا والأندلس السفلى. فالعليا هي شمالى الوادي الكبير والسفلى جنوبية. كانت الأندلس أيام العرب تنحصر في إشبيلية وقرطبة وجيان وغرناطة وملحقاتها. وهي تقسم اليوم إداريا (أو الأقاليم التى تشملها) هي المرية وغرناطة ومالقة وجيان وقرطبة وإشبيلية وقادس وأونبة.[8]

الثقافة في الأندلس:

كانت الأندلس قبل أن يفتح العرب خالية من العلم و الثقافة ولم يكن بها علم ولاثقافة." و أنّ العرب حين فتحوا أسبانيا كان ظلام الجهل يطبق عليها ولم يكن بها علم ولا علماء وبحق مايقوله صاعد في كتابه طبقات الأمم أن هذا القطر لم يعرف في العصر القديم بالعلم ولا كان به شخص اشتهر بحبه للعلم وظل مغلقاً في وجه الحكمة إلى أن فتحه العرب."[9]

فلمّا جاء العرب إلى الأندلس وتوجهوا إلى الاهتمام بالعلوم و الآداب و الفنون ، عرفت الأندلس الحضارة والثقافة

و معنى ذلك أن الفتح العربي لم يكن لهذه البلاد احتلالاً عسكرياً فقط بل كان عمالاً و سبباً لظهور الثقافة والحضارة، ونتج عنه ثقافة جديدة بإسم الثقافة الأندلسية التي امتزجت بالإسلام و النصرانية واليهودية و غلب عليها أثر الإسلام و العرب ، ثمّ قد راجت هذه الثقافة في جميع بلاد الأندلس[10] .

مرّت الثقافة الأندلسية بمراحل مختلفة ، متبعة بالمراحل السياسية ، لذلك إذا قلبنا صفحات التاريخ وجدنا الثقافة في عصر الولاة كمثابة خيوط الفجر الأولى التي تشير إلى الصبح الصادق الآتي، لأن كان هذا العصر عصر الفتوحات و عصر إقامة الدولة الإسلامية في البلاد كما قرأنا في الكتب التاريخية المتعددة كتاريخ أحمد مقصود هيكل وتاريخ شوقي و تاريخ محمد كرد علي وغيره إن موسى بن نصير فاتح الأندلس والغرب كان يرسل مع جيوشه الفقهاء والعلماء الذين يعلّمون الناس بها وينشرون فيهم علوم القرآن والحديث، ويرغبونهم في تعلم اللغة العربية فأسسوا بعض المساجد بحيث المدارس، لكن هذه الفترة كانت مملوئة بالفتن والاضطرابات لذلك لم تتجاوز العلوم و الثقافة من المساجد التي كانت قليلة حينذاك، ثم جاء عهد الأمويين فمشت الثقافة الأندلسية فيه خطوات إلى التقدم و الإزدهار حتى بلغت إلى أوج القوة في العهد الأموي وخاصة في أيّام عبدالرحمن الناصر وابنه الحكم كمايقول أحمد الإسكندري وأصحابه في تأليفه :" أخذت بلاد الأندلس تتأهب للنهوض في العلوم والفنون منذ ملك البلاد بنو أمية و عُنى الخلفاء بنشر العلوم و نقلها".[11]

أسباب التقدم والإزدهار في الثقافة الأندلسية الإسلامية :

1 منها مجيئ كثير من المسلمين إلى الأندلس إمّا فراراً من الدولة العباسية أو إمّا رغبة في استيطان الأندلس بكثرة خيراتها وحسنها، و كانوا جميعاً مثقفين و عارفين بالعلوم الإسلامية والعلوم اللغوية فقاموا بنشر العلوم و الثقافة حتى ذاعت العلوم في الأندلس بمحا ولاتهم ، و من هؤلاء العلماء ابو الاشعث الكلبي المحدث الذي يروي عن أمّه ، و أخ عمر بن عبدالعزيز وعبد الملك بن مروان وغيرهم كثيرون من العلماء الكبار الذين يملؤن الأندلس أدباً ولغة.

2 وكان سبب آخر لذيوع الثقافة هو وفود العلماء الكبار من الشرق إلى الأندلس بعد الفتح و خاصة في العهد الأموي كزرياب الذي جاء في عهد عبدالرحمن الثاني، والذي قد ثقّف الأندلسيين وهذّبهم وعلّمهم طرق المآكل في الأوانية الزجاجية وارتداء الملابس حسب الفصول المختلفة، و خاصة روّج بينهم الغناء والموسيقى. كذلك جاء ابو علي القالي في عهد عبدالرحمن الناصر و هوالذي أملى تلاميذه تاليفه الشهير "الأمالي"ونشر ما أفاء الله عليه من العلوم والفنون بين الأندلسيين[12] .

3 والسبب الثالث هو رحلة كثير من الطّلاب من الأندلس إلى الشرق و كانوا وقفوا أنفسهم للتعلم والتبحّر فيه وقدذهب بعض منهم إلى تعلم العلوم الدينية كالتفسير و الحديث والقراءات وغيرها، وذهب بعضهم لتعلم اللغة كالنحو والصرف، ثم إذا رجعوا إلى بلادهم بعد أن يرسخوا في العلوم والفنون، قاموا لنشر العلوم والثقافة بين بني جنسهم ،كأن الأندلسيين قد اعتادوا من اتخاذ هذه الرحلات بين مراكز العلوم في العالم الإسلامي عادة حسنة للتزود بالعلوم و اكتساب المعرفة وكانت هذه الرحلات في طلب العلم من أقوى الأسباب التي أعانت على خلق البيئة الثقافية.[13]

من أمثلة هؤلاء الطلاب العظام كالغازى بن قيس، و يحيىٰ بن يحيىٰ الليثي تلميذي الإمام مالك ، وأبي موسى الهواري ، وعبدالملك بن حبيب وغيرهم من أساطين العلم والمعرفة. وكان أشهر منهم يحيىٰ بن يحيىٰ الليثي الذي تتلمذ للإمام مالك و استفاد منه و أخذ عنه مجموعة للأحاديث المشهورة بإسم "المؤطا" وسافر إلى مصر وأخذ بها من علمائها العظماء ، ثم عاد إلى الأندلس و نشر ما أنعم الله عليه من العلم ونشر المذهب المالكي فيها بفضل الله ونصرته حتى أصبح المذهب المالكي مذهباً مسيطراً و مذهبا رسمياً في بلاد الأندلس .[14]

هكذا اقتفى أهل الأندلس آثار المشرقيين في العلم والثقافة و أخذوا عن أئمتهم العلوم الدينية واللغوية والأدبية لذلك قد تشبّه أدب الأندلس بالأدب المشرقي حيناً ، لكنّ طبيعة البلاد و حياتها و مجتمعها قد جعلت له ملامح خاصّة ميزّته من أدب المشارقة في حينٍ آخر.

4 أمّا عامل رابع لذيوع العلوم و نشرها في الأندلس هو إنشاء المساجد و بخاصة إنشاء مسجد قرطبة الذي بمثابة الجامعة التي تلقى فيها التعاليمُ الدينية من علوم القرآنِ والحديث و الفقه ، والتعاليمُ اللغوية من النحو و الصرف والعروض وغيرذلك ، يذكر الدكتور أحمد أمين في كتابه قائلا:" لن ننسى أن من أهم عوامل دفع الثقافة الأندلسية في تلك الفترة ماكان من إنشاء مسجد قرطبة وغيره ، فقد كانت المساجد في تلك الآونة بمثابة المدارس والجامعات ، وقد كانت مسجد قرطبة بالذات هو النواة الحقيقية للجامعة الأندلسية التي أسست في تلك الفترة والتي ستّتسع في العصور التالية حتى تكون في القرن العاشر أعظم جامعات أوربا."[15]

ويؤكده الدكتور محمد رضوان الداية في كتابه قائلا:"كانت المساجد هي دور العلم في الأندلس فإنّما لم تنشأ فيها المدارس المستقلّة إلاّ في زمن متأخر في عهد دولة بني نصر".[16]

5 أما وسيلة أخرى لذيوع العم والثقافة في الأندلس كانت جمع الكتب العلمية والدينية و إقامة المكتبات في البلاد وقد كان لهذه الوسيلة دور هام في تنشيط الحركة العلمية والأدبية بالأندلس ، و كان الأندلسيون قد أنشأوا

في كل ناحية من نواحي البلاد مكتبات ظلّت ملجأ الثقافة و أتيت بالكتب من المشرق كثيراً في العهد الأموي و خاصّة في أيام الحكم الذي كان محبّاً جماً لجمع الكتب، و كان أشدّ حريصاً على جمع الكتب للمكتبة له و كان يدفع أحياناً ثمناً غالياً لحصول كتبه المقصودة.كمايذكر المقري واصفاً له: أمّا الحكم بن عبدالرحمن فقد ثبت انه لم يولع خليفة بالكتب كما أولع ولم يجمع أمير منها مثل الذي جمع ، و قد اشتهر بمكتبته الغنية التي بلغت أربع مائة ألف مجلّد". [17] و قيل إن عدد الفهارس التي كانت فيها تسمية الكتب هي أربعة وأربعون ، في كل واحدة منها عشرون ورقة[18] .

هكذا اجتمعت بالأندلس خزائن كبيرة من الكتب،و غدت الأندلس سوقاً لها،و أصبح الاهتمام بجمع الكتب أمراً بارزاً حتى توجّه الناس إلى جمعها و اقتنائها توجهاً كثيراً و امتلأت بيوت الأندلس من الكتب و المجلّدات " حتى لم يكد يخلو بيت منها" . [19]

6 وهناك كانت وسيلة أخرى دون جمع الكتب لانتشار الثقافة هي التأليف والترجمة ، كان الأندلسيون قد أقبلوا إليها كثيراً لإثراء تراثهم ، فألّفوا الكتب الكثيرة و ترجموا منها. [20]

و إن أمعنا النظر في سياسة الأندلس الإسلامية، وجدنا سبباً ذا أهمية عظيمة الذيوع العلم و الثقافة بها وهو أن الحكام و الأمراء كانوا يتولّون على العلم ويرعونه أحسن رعاية لأنّهم أنفسهم أصحاب العلم كما يبيّن الدكتور مصطفى في كتابه:"مجمل القول إن الحكام في الأندلس متحداً أو ممزقاً كانوا أصحاب علم و ثقافة و استنالة معرفة". [21]

يلمح إلى ذلك الدكتور يوسف فرحات في تأليفه قائلاً: " أمّا الأدب فقد شهد أرقى مراحل إزدهاره بعد ماتحولت بلاطات الأمراء إلى منتديات يقصدها الشعراء والكتاب ليفيدوا من الأعطيات وقد قلّد الاستقراطيون الأمراء فحوّلوا قصورهم ومنازلهم إلى مجالس ثقافية". [22]

هكذا أصبح جميع أهل الأندلس مشغوفين و محبّين بالعلوم وامتلأت الأندلس من أقسام العلوم والفنون كلّها حتى أخذت الأنظار ترتفع إليها من أنحاء العالم ، وطفق الناس يسافرون إليها لطلب العلم ،كما ذكر محمد كرد علي في كتابه يقول :" ولذلك كانت الأندلس في عهد العربي كعبة العلم يحجّ إليها أذكياء الطُّلاب من فرنسا و إيطاليا وغيرهما كما يحجّ اليوم طلاب العلم إلى كليات فرنسا و ألمانيا والبلجيك وسويسرا و هولاندة" [23]

فقد إزدهر كل فرع من فروع العلم في ظل الإسلام في الأندلس،إمّا العلوم اللغوية كالنحو و الصرف و العروض و البلاغة ، و العلوم الأدبية كالنثر و الشعر، و العلوم العقلية كعلم الأصول والفلسفة كانت جميعها سواسية عندهم في الاعتناء بها يقول المقرى:" و كل العلوم لها عندهم حظ و اعتناء إلا الفلسفة والتنجيم فإن لهما حظّا عظيما عند خواصهم " . [24]

و امتاز الأندلسيون بالسرعة الغريبة في تلقف العلوم ، وكان من صفاتهم أنهم لايتعلّمون لحصول الوظيفة بل يقرأون ويتعلّمون بميل ورغبة شديدة وينفقون كل ما عندهم من مال حتى يتعلموا ، و متى عُرف أحد منهم بالعلم أصبح في مقام التكريم والإجلال في المجتمع ويشير إليه الناس بالعلامة .[25]

فهذه الحالة الثقافية ظلت في الأندلس في الحكم الإسلامي الذي باد بعد أن يقوم بها ثمانية قرون و ترك خلفه آثاراً أدبية وفنية يعترفها المستشرقون والمسيحيون إلى الآن بعدما أرادوا أن يمحووا إسم المسلمين من أرض الأندلس، يكتب فلب كي حتی في تاريخه الشهير معترفاً لمحاولات المسلمين الأدبية والثقافية:

"Muslim Spain wrote one of the brightest chapters in the intellectual history of medieval Europe. Between the Middle of the eight and beginning of the thirteenth centuries, as we have noted before, the Arabic speaking peoples were the main bearers of the torch of culture and civilization throughout the world"[26]

وهو يضيف إلى ذلك أن الأندلس كان لها حظّ عظيم في إثراء اللغة العربية و في إثراء العلوم و الفنون.

و يستدل الدكتور محمد كرد علي على ثقافة الأندلسيين في الدولة الإسلامية قول أحد مؤرخي الأفرنج : " إن سكّان أسبانيا الإسلامية إلاّ قليلاً كانوا يقرأون ويكتبون على حين كان أهل الطبقة العليا في أوربا المسيحية أميين لايقرأون ماعدا أفراد قلائل من الشمامسة جعلوا الكتابة من شأنهم " .[27]

الخلاصة:

تُثبت هذه الدلائل المذكورة أن الأندلس له حظّ وافر في الثقافة و الحضارة وقد سبقت البلاد الأوربية الأخرى في الدولة الإسلامية. لذلك فشت الثقافة فشعاًواسعاً في عهد الإسلام في الأندلس، فقد شهدت نفسها أوج إزدهارها لماشارك الخلفاء والأمراء في ارتقاءها، وعزّوها و عقدوا لها في قصورهم مجالس عديدة كعبدالرحمن الأول والثاني والثالث والحكم والمعتصم وغيرهم. و كان الخلفاء الذين تولّوا الإشراف على الثقافة والأدب، و حاولوا لإزدهارها.

الهوامش والمصادر

[1] المقري ،أحمد بن محمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ،تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد ،مطبعة السعادة ،مصر 1949، ج 1،ص131

[2] هيكل ،أحمد مقصود ، الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة ،الطبعة العاشرة ،دار المعارف، القاهرة ،1986،ص13 .ونفح الطيب ،ج1، ص130-141

[3]نفح الطيب ،ج1، ص130

[4]الأدب الأندلسي،ص 15

[5]شكيب أرسلان،الأمير،الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية ، الجزء الأول،المطبعة الرحمانية ،مصر،1936،ص 70

[6]نفح الطيب ،ج1، ص130

[7]الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية ،الجزء الأول ،ص 70

[8]الأمين الريحاني ، المغرب الأقصى،دار المعارف ،مصر ،1952، ص439

[9]دكتور شوقي ضيف ، عصر الدول والإمارت ،دار المعارف ،مصر .ص 60

[10]صاعد الأندلسي ، طبقات الأمم، تحقيق : د.حسين مؤنس ،مكتبة دار المعارف ، مصر ، 1993،ص 97

[11]أحمد الإسكندري و أصحابه ، المفصّل فی تاریخ الادب العربي ،دار إحياء العلوم ،بيروت،ص90

[12]د.سعد إسماعيل الشلبي، الأصول الفنية للشعر الأندلسي ،دار نهضة مصر ، القاهرة ، 1992،ص7978

[13]جودت الركابي ، في الأدب الأندلسي ،دار المعارف ، القاهرة ، 1980،ص55

[14]أحمد أمين ، ظهر الإسلام ،مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، 1962،ج3،ص23

[15]المرجع السابق ص 79

[16]الدكتور محمد رضوان ،النقد الأدبي في الأندلس ،دار الأنوار ، بيروت ، 1968،ص49

[17]نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، ج1 ، ص 184

[18]طبقات الأمم ،ص 66

[19]إبراهيم بن حسن ، الأدب العربي ،وزارة المعارف ، المملكة العربية السودية ، 1997،ص 20

[20]ظهر الإسلام ، ج ،3ص 2321

[21]الدكتور مصطفى الشكعة ، الأدب الأندلسي , موضوعاته وفنونه ،دار العلم للملايين ،بيروت،1979،ص104

[22]الدكتور يوسف فرحات ، ديوان ابن زيدون ،دار الكتاب العربي ، لبنان ،1991، ص10

[23]محمد كرد على ، في غابر الأندلس و حاضرها ، المكتبة الأهلية ،مصر ، 1923،ص52

[24]النفح الطيب ،ج، 1 ص205

[25]المرجع السابق ، ص 210

[26]Phillip K.Hitty ,History of the Arabs,10 Edition ,MacMillan Press, London, P.557

[27]غابر الاندلس و حاضرها ، ص 87